الفصل الاول

(١) الاسرة الهرقلية

يبدو أن اسرة هرقل التي حكمت الامبراطورية ماينيف على قرن من الزمان كانت من اصل أرمني (١). وكان هرقل الكبير ابو الامبراطور هرقل يعمل حاكماً على الولاية البيزنطية في شمال افريقية اثناء حكم الامبراطور السابق فوقاس وكان ذلك الحاكم الهرقلي يحكم في ولايته في امن وسلام بعيداً عن المشاكل التي واجهتها الامبراطورية أيام الامبراطور السابق. وحين تردت الاوضاع الداخلية والخارجية في عهد فوقاس التمس اهالي واحزاب العاصمة البيزنطية هرقل الكبير لانقاذهم. واخيراً استجاب هرقل لرغباتهم وأعد اسطولاً لهذا الغرض ووضعه تحت قيادة ابنه الذي يدعى هرقل ايضاً. ومن الواضح ان تحركات هرقل كانت بطيئة اذ مرّ اثناء سيره بجزر البحر المتوسط التابعة للامبراطور لكي يضم اليه بعض القوات وبعض قطع من الاسطول. وقد لقي هرقل ترحيباً في تلك الجزر والمدن الساحلية التي مر بها. واخيراً اتجه هرقل الى سواحل بلاد اليونان حتى يبلغ مدينة سالونيك التي يجعلها مركزاً لعملياته العسكرية. وقد اقام بها لفترة طويلة اتم فيها تجهيز جيشه واسطوله، علاوة على كونها اصبحت مركزاً جديداً لتجمع القوى المعادية لفوقاس (٢).

اتجه هرقل باسطوله الى مضيق الدردنيل. وعند اقترابه من العاصمة انتشرت الفتنة في الجند الموالين لفوقاس ولم يصمد اسطوله طويلاً امام اسطول هرقل.

---

(1) Vasiliev, Op. cit, p. 193.

(2) Gibbon, Op. cit, Vol, 2, p. 435-436.

وبعد صدام قصير هزم اسطول فوقاس وفتحت العاصمة والقي القبض على فوقاس واقتيد مقيداً حتى وصل الى حضرة هرقل، فتليت عليه قائمة الجرائم التي ارتكبها جريمة بعد اخرى. واخيراً ادين بها كلها وسيق الى الاعدام وقيل ان البحارة قد قطعوه ارباً. وفي الخامس عشر من شهر اكتوبر عام ٦١٠ م نودي بهرقل امبراطوراً وتوج طبقاً للتقاليد المتبعة (٣).

كان هرقل الابن امبراطوراً نشيطاً وعلى قدر عال من الكفاءة وان جهده بعد فوقاس المستبد جعله بمثابة الحاكم المثال بالنسبة لمعاصريه. والواقع ان هرقل يعتبر من اعظم الاباطرة في التاريخ البيزنطي بالرغم مما احاط بالامبراطورية من اخطار وما جد بها من مشاكل في عهده. وقد حاول هرقل وبذل جهده ليتغلب على هذه الاخطار والمشاكل. واذا كان قد فشل في احراز النجاح كاملاً في هذا المجال فذلك يرجع الى ان العوامل التاريخية كانت اقوى من شخصه وامكانيات دولته في عهده.

تزوج هرقل مرتين، ففي اليوم الاول الذي توج فيه امبراطوراً تزوج من ايدوسيا Eudocia التي انجبت له ولداً هو قسطنطين، غير انها ماتت اثناء وضعها ابنها قسطنطين (٤).

ولم تمض سنة على وفاة زوجته الاولى، تزوج هرقل من ابنة اخته وتدعى مارتينا Martina رغم معارضته الشعب ورجال الدين له، لأن مثل هذا الزواج يخالف الشرائع الدينية والدنيوية. ونتيجة لتأثير مارتينا على زوجها هرقل فقد حاولت حصر وراثة العرش في سلالتها، لا في ابن هرقل من ايدوسيا. ونجحت اخيراً في اقناع زوجها الامبراطور باشراك ابنها هرقلون Heraclonas في ولاية العهد. وترتب على ذلك ان ساد في الاسرة من العدوان والكراهية ماترك اثراً سيئاً عند هرقل في اواخر حياته ومات هرقل عام ٦٤١ (٥).

(٢) العلاقات الخارجية مع:

الفرس:

كان لمقتل الامبراطور موريس على يد الامبراطور فوقاس سبباً تذرع به كسرى الثاني (ابرويز) لاعلان الحرب على بيزنطة. وعلى الرغم من ان فوقاس قاتل

(3) Oman, Op. cit, pp. 130, 131.
(4) Gibbon, op. cit, Vol. 2, pp. 426, 523, 524.
(5) Oman, op. cit, pp. 164, 165.

موريس قد قتل هو الاخر الا ان الحرب استمرت بعد ذلك. وفي عام ٦١٣ م عندما كانت جيوش الامبراطورية تدافع عن اقليم كبدوكية Cappadocia قام الفرس بمهاجمة انطاكية وحمص وقيسارية، وقد منيت حاميات الامبراطورية التي كانت متواجدة هناك بهزيمة كبيرة. مما ساعد على تقوية مركز القوات الفارسية في هذه المناطق (٦). ويبدو ان الفرس كانوا هذه المرة عاقدين العزم على الوصول الى شواطيء البحر الابيض بدليل انهم هاجموا الاسكندرية في مصر.

تقدمت القوات الفارسية نحو دمشق واستولت عليها ثم اتجهت شمالاً واستولت على مدينة انطاكية عام ٦١١ م وقلعتها الحصينة وتمكنت من طرد القوات البيزنطينية من ارمينية. ويعتقد أن الخلافات الدينية بين اهالي الولايات الشرقية والحكومة البيزنطينية واضطهاد الاخيرة للعناصر المينوفيزتية كان مما يسر على الفرس فتح هذه البلاد (٧).

وما ان تم للفرس احتلال بلاد الشام وارمينية زحفوا هذه المرة على فلسطين وكان هدفهم احتلال بيت المقدس ومن ثم الاتجاه بعدها الى احتلال مصر. ظهر الجيش الفارسي امام اسوار بيت المقدس عام ٦١٤ م وارسل القائد الفارسي شهرباراز من مقر قيادته رسلاً الى حاكم بيت المقدس يطالبه بتسليم المدينة، ويبدو ان حاكم المدينة لم يستطيع المقاومة فسلم المدينة للقوات الفارسية. وبعد شهور قليلة قام اهالي المدينة العرب على الحامية الفارسية وقتلوا رجالها واغلقوا ابواب المدينة. وترتب على ذلك قدوم جيش فارسي حاصر المدينة ثلاثة اسابيع نجح بعدها الفرس في اختراق اسوار المدينة ودخولها بحد السيف، وانزلوا في الاهالي القتل وبالمدينة السلب والنهب والحرق لمدة ثلاثة ايام. وقد قتل الفرس من الاهالي عدداً كبيراً قدره بعض المؤرخين بين ٦٠ الى ٩٠ الفاً (٨). كما اسروا عدداً اخراً كبيراً، وكان من ضمن الاسرى بطريق بيت القدس. واستولى الفرس على الصليب المقدس الذي يعد من اهم الاثار الدينية عند المسيحيين، ونقلوه الى عاصمتهم طيسفون (المدائن) (٩).

والمعروف كذلك ان كنيسة القيامة (الضريح المقدس) التي شيدها قسطنطين الكبير قد دمرها الحريق الذي اشعله الفرس اذ ذاك. وقد اشترك اليهود مع

---

(6) Gibbon, op. cit, 2; pp. 437, 439.

(7) Vasiliev, Op. cit, p. 196.

(8) Oman, Op. cit, pp. 131, 132, Vosiliev, op. cit, p. 195.

(9) Baynes and Moss, Op. cit, p. 10.

موريس قد قتل هو الاخر الا ان الحرب استمرت بعد ذلك. وفي عام ٦١٣ م عندما كانت جيوش الامبراطورية تدافع عن اقليم كبدوكية Cappadocia قام الفرس بمهاجمة انطاكية وحمص وقيسارية، وقد منيت حاميات الامبراطورية التي كانت متواجدة هناك بهزيمة كبيرة. مما ساعد على تقوية مركز القوات الفارسية في هذه المناطق (٦). ويبدو ان الفرس كانوا هذه المرة عاقدين العزم على الوصول الى شواطيء البحر الابيض بدليل انهم هاجموا الاسكندرية في مصر.

تقدمت القوات الفارسية نحو دمشق واستولت عليها ثم اتجهت شمالاً واستولت على مدينة انطاكية عام ٦١١ م وقلعتها الحصينة وتمكنت من طرد القوات البيزنطينية من ارمينية. ويعتقد أن الخلافات الدينية بين اهالي الولايات الشرقية والحكومة البيزنطينية واضطهاد الاخيرة للعناصر المينوفيزتية كان مما يسر على الفرس فتح هذه البلاد (٧).

وما ان تم للفرس احتلال بلاد الشام وارمينية زحفوا هذه المرة على فلسطين وكان هدفهم احتلال بيت المقدس ومن ثم الاتجاه بعدها الى احتلال مصر. ظهر الجيش الفارسي امام اسوار بيت المقدس عام ٦١٤ م وارسل القائد الفارسي شهرباراز من مقر قيادته رسلاً الى حاكم بيت المقدس يطالبه بتسليم المدينة، ويبدو ان حاكم المدينة لم يستطيع المقاومة فسلم المدينة للقوات الفارسية. وبعد شهور قليلة قام اهالي المدينة العرب على الحامية الفارسية وقتلوا رجالها واغلقوا ابواب المدينة. وترتب على ذلك قدوم جيش فارسي حاصر المدينة ثلاثة اسابيع نجح بعدها الفرس في اختراق اسوار المدينة ودخولها بحد السيف، وانزلوا في الاهالي القتل وبالمدينة السلب والنهب والحرق لمدة ثلاثة ايام. وقد قتل الفرس من الاهالي عدداً كبيراً قدره بعض المؤرخين بين ٦٠ الى ٩٠ الفاً (٨). كما اسروا عدداً اخراً كبيراً، وكان من ضمن الاسرى بطريق بيت القدس. واستولى الفرس على الصليب المقدس الذي يعد من اهم الاثار الدينية عند المسيحيين، ونقلوه الى عاصمتهم طيسفون (المدائن) (٩).

والمعروف كذلك ان كنيسة القيامة (الضريح المقدس) التي شيدها قسطنطين الكبير قد دمرها الحريق الذي اشعله الفرس اذ ذاك. وقد اشترك اليهود مع

---

(6) Gibbon, op. cit, 2, pp. 437, 439.

(7) Vasiliev, Op. cit, p. 196.

(8) Oman, Op. cit, pp. 131, 132, Vosiliev, op. cit, p. 195.

(9) Baynes and Moss, Op. cit, p. 10.

الفرس في تنكيلهم بالاهالي واماكنهم المقدسة عند فتح الفرس لبيت المقدس (١٠).

وكان لسقوط بيت المقدس في يد الفرس وماحق بها من تخريب نتائج
اهميتها وافسدت الزراعة وشلت الحركة التجارية، ودمرت عدداً كبيراً من الاد
والاماكن الدينية. يضاف الى ذلك زوال هيمنة البيزنطيين امام جيرانهم العرب
فتهيأت الفرصة لقيام الوحدة بينهم وبالتالي الانقضاض على الممتلكات البيزنطينية
بلاد الشام بعد ظهور الاسلام وهذا ماسنتحدث عنه بعد قليل.

والواقع ان تقدم الفرس لم يقتصر على البلاد الشامية فحسب، بل امت
باتجاه الشمال اذ ان قسماً من الجيش الفارسي تقدم في جهات أسيا الصغرى
واستولى على مدينة خلقدونية المواجهة للقسطنطينية العاصمة. بينما اتجه القسم الاخ
من الجيش الى مصر. فغزوا مصر عام ٦١٩ م واستولوا على الاسكندرية وتمكنوا بع
ذلك من السيطرة على سائر البلاد المصرية. وكان من الطبيعي ان يترتب على ذلك
انقطاع القمح عن القسطنطينية وازدياد سوء الاحوال الاقتصادية بالعاصمة (١١).

وازاء هذا الخطر الفارسي، كان على هرقل ان يبذل كل ما في وسعه من
طاقة وجهد من اجل ازالة ذلك الخطر الكبير، اذ لم يعد سلطان الامبراطور يتعدى
اسوار القسطنطينية. اتخذ هرقل سلسلة من الاجراءات منها جمع الجواهر والحلي
الموجودة في كنائس العاصمة والاقاليم وامر بسكها عملة نقدية، ثم امر بوضع
حاميات قوية في العاصمة استعداداً للحرب. كما استعان بقبائل القوقاز والخزر بعد
ان نجح في عقد احلاف معهم (١٢). ويبدو ان هرقل اراد في نفس الوقت ان يجس
نبض الفرس في استرداد الاراضي التي اغتصبوها بالطرق السلمية فيما اذا وطد
علاقاته معهم. فارسل الى كسرى الثاني ملكهم سفارة مع رسالة وهدايا قيمة
واتجهت السفارة الى الملك الفارسي فقبل الهدايا، واجاب على كتاب هرقل بقول
لرئيس السفارة: « قل لمولاك ان دولة الروم من املاكي وماهو الا عاصياً وعبداً أبقا
ولن امنحه السلام حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس (١٣) ».

---

(١٠) وهذا العمل يذكرنا بتعاون يهود بابل — وهم بقايا الاسر البابلي — للفرس الاخمينيين الذي غزو البا
عام ٥٣٨ ق. م بقيادة ملكهم كروش الذي دخل بابل واسقط الحكم الوطني فيها. انظر:
Hubart, Op, cit, p. 42, 45.

(11) Previte, Orton, Op. cit, pp. 205-6, Vasiliev, op. cit, p. 196, Baynes and Moss, op. cit, p. 10.

(12) Vasiliev. Op. cit, 197, 198.

(13) Gibbon, op. cit, Vol. 2, p. 444.

كان في هذا الرد معنى الحرب، فاستعد هرقل للقتال بعد قليل من التردد وأبدى هذا الامبراطور شجاعة ومهارة عجيبة في مواجهة الخطر الفارسي. فبعد سنوات عصيبة امضاها في معالجة المشاكل الواحدة تلو الاخرى. وبعد ان أعد عدته وجيشه. نجد انه بدلاً من منازلة جيوشهم المتوغلة في اراضي الامبراطورية قام بمهاجمتهم في عقر دارهم. فقد تقدم بجيشه في شهر كانون الاول عام ٦٢٧ م ووصل امام نينوى (قرب الموصل الحالية) وهناك خاض بجيشه معركة حاسمة ضد الفرس قررت مصير الصراع بين الطرفين. وقد لحق بالفرس هزيمة ساحقة في هذه الموقعة. عجز بعدها كسرى من تعبئة قواته مرة اخرى. وكان في ذلك فرصة استغلها هرقل في الاستيلاء على قصر كسرى في مدينة دستكرد (١٤).

ووزع على جنوده الغنائم. وبعد سقوط دستكرد تراجع كسرى الى المدائن عاصمة الفرس ولكنه اضطر الى الفرار منها عندما اقتربت منها القوات البيزنطينية. وبعد ايام حلت النهاية بكسرى اذ قبض عليه ابنه شيروية بمساعدة كبار رجال الدولة. بعدها مات كسرى هماً (١٥).

ارسل الملك الفارسي الجديد رسالة استعطاف الى هرقل وناداه بالوالدي واعتذر عن افعال سلفه. واستقبل هرقل الرسالة بالترحاب وانتهى الامر بعقد الصلح عام ٦٢٨ م وكان بطبيعة الحال في صالح البيزنطينيين، وبمقتضاه استرد البيزنطيون كل ماكان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في ايدي الفرس، بما في ذلك املاكهم في بلاد الجزيرة والشام ومصر. كما استرد الصليب المقدس. وعند عودة هرقل الى عاصمته استقبل بحفاوة من قبل الاهالي ورجال الدين (١٦).

العرب :

كان للهجرة النبوية الشريفة عام ٦٢٢ م أبعاد تاريخية عظمى، لذلك لاغرابة ان اتخذ العرب المسلمون من هذا الحدث فيما بعد منطلقاً لتقويم خاص بهم (١٧)، وتم في المدينة صنع انجازات كبيرة للغاية، كان اولها ايجاد التفاهم وصنع

(١٤) يشير كريستنسن ان هذه المدينة كانت مهمة جداً بالنسبة الى كسرى الثاني حيث كان يقيم بها منذ عام ٦٠٤ م وحتى عام ٦٢٧ م حين وقعت بايدي البيزنطينيين. وفضلها على المدائن العاصمة لأن المنجمين نبأوه بأن المدائن شؤم عليه. كريستنسن ـ المصدر السابق ـ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(15) Oman, Op. cit, p. 138.

(16) Baynes and Moss, op. cit, p. 11.

(17) Vasiliev, op. cit, p. 204.